مَفاهِيمٌ وآدابٌ حَوْلَ لفظِ النَّبيِّ في سُورةِ الأحزابِ

د. صلاح ناجي الأسدي

جامعة المثنى / كلية التربية - قسم علوم القرآن

فحوى البحث

يتناول البحث آياتٍ من سورة الأحزاب المدنية الشريفة والتي تحدثت -في معظمها- عن ضوابط السلوك الاجتماعي الخاص والعام. فتناول آيات تتنوع في اسلوبها وخطابها. فهناك منها ما اشتمل على معانٍ عظيمة وتوجيهات ربانية اختص بها النبي ﷺ عن سائر أمته مثل: الوصية بتقوى الله ومسألة الزواج والتعامل مع الزوجة وما الى ذلك مما يعد -ومن باب أولى- وصية للمؤمنين كافة، اللهم الا مايخص بيت النبي الأكرم وتخيير أزواجه بين زينة الحياة الدنيا وضيق العيش مع النبي مقابل المغفرة والرضوان من الله -سبحانه- لهن.

مقدمة

تتحدث سورة الأحزاب عن ظروف معركة الأحزاب التي حدثت (في شوال من السنة الخامسة للهجرة)، عندما قامَ يهود بني النضير بتأليب المشركين من غطفان وقريش، على قتال النبي ﷺ، وعزموا على استأصال شأفة الإسلام، واستباحة المدينة المنورة، حتى رمتهم العرب عن قوسٍ واحدة، واستشار النبي الصحابة الكرام في قتال الجموع الزاحفة، فأشار عليه سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه بفكرة عمل الخندق حول الجهة المكشوفة من المدينة، وحدثت في هذهِ الواقعة للمسلمين دروس عظيمة من الصبر على الخوف، والجوع، والبرد الشديد، والطاعة، وفُضحت خبايا المنافقين، وتحققت في هذهِ الغزوة معجزات كثيرة للنبي ﷺ منها، تكثير الطعام، و البشارة بالنصر.

وسورة الأحزاب من السور المدنية التي تتناول الجانب التشريعي لحياة الأمة الإسلامية شأنها شأن سائر السور المدنية وقد تناولت حياة المسلمين الخاصة والعامة وأخص منها أمر الأسرة فشرعت الأحكام بما يكفل للمجتمع السعادة والهناء وأبطلت بعض التقاليد والعادات الموروثة مثل التبني والظهار، وطهرت المسلمين من رواسب المجتمع الجاهلي ومن تلك الخرافات والأساطير الموهومة التي كانت متفشية في ذلك الزمان واشتملت السورة على بعض الآداب والأحكام: فقد جاء الحديث عن بعض الآداب الاجتماعية كآداب الوليمة، وآداب الستر والحجاب وعدم التبرج، وآداب معاملة الرسول ﷺ واحترامه إلى آخر ما هنالك من آداب اجتماعية. وجاءت فيها بعض الأحكام التشريعية مثل حكم الظهار والتبني، والإرث، وزواج مطلقة الابن من التبني، وتعدد زوجات الرسول الطاهرات والحكمة منه، وحكم الصلاة على الرسول ﷺ وحكم الحجاب الشرعي، إلى غير ما هنالك من أحكام تشريعية.

ومن أسباب اختيار البحث في هذه السورة انها ضمت بين حنايا آياتها لفظة النبي (١٥) مرة، وقد وردَ لفظ النبي فيها بصيغة الجمع مرتين وهي أكثر سورة ورد فيها لفظ النبي بهذا العدد، وكلما امعنا النظر في الآيات التي اشتملت على (لفظ

النبي) وجدنا له دلالة موضوعية تختلف عن دلالتها في اللفظ الآخر، وكل لفظ يعالج انحرافا اجتماعياً، أو سلوكياً، أو يصحح المفاهيم المتوارثة الخاطئة، أو يحث على آداب وقيم إسلامية رفيعة، ويتلون، ويتنوع فيها الخطاب في وجهته، وفي اسلوبه من لفظة لأخرى.

الفرق بين النبي والرسول على المشهور

١. إن الرسول إنسان ذَكَرٌ أُوحِيَ إليه بِشَرْع وأُمِرَ بتبليغه. والنبي إنسان ذكر أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه.

٢. وكل من النبي والرسول يوحى إليه، لكن النبي قد يبعث في قوم مؤمنين بشرائع سابقة؛ كأنبياء بني إسرائيل؛ يأمرون بشريعة التوراة، وقد يوحى إلى أحدهم وحيا خاصاً في قصة معينة. وأما الرسل؛ فإنهم يبعثون في قوم كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته؛ فهم يرسلون إلى مخالفين فيكذبهم بعضهم.

٣. والرسول أفضل من النبي.

٤. كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً قال الحافظ ابن حجر: ((فإن لفظ النبوة والرسالة مختلفان في أصل الوضع فإن النبوة من النبأ وهو الخبر فالنبي في العرف هو المُنبَّأ من جهة الله بأمر يقتضي تكليفا وان أمر بتبليغه الى غيره فهو رسول والا فهو نبي وعلى هذا فكل رسول نبي بلا عكس فإن النبي والرسول اشتركا في أمر عام وهو النبأ وافترقا في الرسالة فإذا قلت فلان رسول تضمن انه نبي رسول وإذا قلت فلان نبي لم يستلزم انه رسول))[1].

أ. الآيات التي توجه الخطاب فيها إلى حضرة النبي الأعظم ﷺ.

الآية الأولى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[سورة الأحزاب: ١].

١. المفهوم الأول للآية: يأمر الله عبده ونبيه وإمام أنبيائه بالتقوى، وكون النبي ﷺ يؤمر بالتقوى هو تنبيه بالأعلى على الأدنى، فذلك نداء للنبي المعصوم ﷺ، وهو للناس كلهم بأن يتقوا الله، والتقوى: هو أن يجعل بينه

(١) كتاب فتح ا لباري: لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ ت ٨٥٢هـ دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩هـ حققه محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب (١١/ ١١٢).

وبن عذاب الله وغضبه وقاية، وسئل الإمام علي عليه السلام عن التقوى فقال: ((هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل))[٢]. فالله جل جلاله يدعونا إلى طاعته والبعد عن معصيته؛ ليكرمنا برضاه وبالجنان خالدين مخلدين فيها.

٢. المفهوم الثاني: يأمرالله تعالى نبيه بدوام التقوى والإستمرارعلى حال الوجل والخوف من نزول نقمة الله على عباده العصاة برغم وجود التقوى في قلبه مسبقاً لقوله عليه الصلاة والسلام: (أماوالله إني لأخشاكم لله وأتقاكم)[٣] فلا يأمن أحد من بطش الله ولا يغتر أحد بطاعته له سبحانه.

٣. المفهوم الثالث للآية: وهذا فيه تنبيه العصاة من عموم الناس لعدم طاعة المنافقين، أي: يا أيها الناس تبعاً لنبيكم وما أمر به رسولكم اتقوا الله ولا تطيعوا الكافرين بالله، ولا تطيعوا المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام كذباً وزوراً، ويخفون معصية الله، ويخفون الكفر بالله، فهؤلاء المنافقون إياكم وإياهم، وهؤلاء الكافرون إياكم وإياهم وقد ذكر الإمام القرطبي في سبب نزول الآية: ((إنها نزلت في أبي سفيان ابن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور عمرو بن سفيان نزلوا المدينة على عبد الله بن أُبَيْ ابن سلول رأس المنافقين بعد أحد وقد أعطاهم النبي صلى الله عليه وآله عهداً، فأرادو أن يكلموه فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وطعمة بن أبيرق فقالوا للنبي صلى الله عليه وآله وعنده عمر بن الخطاب: ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل إن لها شفاعة ومنعة لمن عبدها وندعك وربك فشق على النبي صلى الله عليه وآله ما قالوا فقال عمر يا رسول الله ائذن لي في قتلهم فقال النبي صلى الله عليه وآله إني قد أعطيتهم

(٢) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد/ لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي ت: ٩٤٢هـ، دار الكتب العلمية -بيروت- ١٤١٤هـ، ط١، حققه: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض ١/ ٤٢١.

(٣) المعجم الكبير/ لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، مكتبة الزهراء الموصل-١٤٠٤ -١٩٨٣، ط٢: حققه: حمدي بن عبدالمجيد السلفي(٩/ ٢٥).

عهداً فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه فأمر النبيﷺ أن يخرجوا من المدينة فنزلت))[٤].

الآية الثانية: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

١. المفهوم الأول للآية: جاءت هذه الآية في معرض الحديث عن قضية التبني وهو ما كان يفعله الناس قبل الإسلام، وفعله رسول اللهﷺ، وذلك حين تبنى زيد بن حارثة رضي الله عنه[٥]، وكان التبني عادة العرب في قريش وغيرها، ولكن عندما جاء الإسلام أبطل التبني، ونزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: ٤]، فحرم الله التبني، وألغاه، وألغى نتائجه، وجعله قولاً من الزور، وعملاً من الباطل.

٢. المفهوم الثاني للآية: إسقاط الفوارق الطبقية بين الناس، إذ أننا نجد من خلال السياق القرآني أن الأية الكريمة تدور أحداثها حول قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها صاحبة النسب الرفيع وزوجها آنذاك زيد بن حارثة وهو مولى، حينما أراد النبيﷺ أن يحطم الفوارق الطبقية الموروثة في الجماعة المسلمة؛ فيرد الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحدإلا بالتقوى، وكان الموالي وهم (الرقيق المحرر) طبقة أدنى من طبقة السادة والأشراف. فأراد رسول اللهﷺ أن يحقق المساواة الكاملة بتزويج مولاه من شريفة من بني هاشم، قريبتهﷺ زينب بنت جحش؛ ليسقط تلك الفوارق الطبقية بنفسه، في أسرته وكانت هذه

(٤) تفسير القرطبي/ لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ت -٦٧١هـ، دار الشعب القاهرة، ١٣٧٢هـ ط٢، حققه: عبد العليم البردوني (١٤/ ١١٤).

(٥) ((زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى مولى رسول اللهﷺ ويقال انه من كلب من اليمن قتل في عهد رسول اللهﷺ يحكى عن بن عمر إنا كنا ندعوه زيد بن محمد حتى نزلت ادعوهم لآبائهم روى عنه ابنه أسامة بن زيد)) الجرح والتعديل/ لعبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس أبو محمد الرازي التميمي، دار إحياء التراث العربي-بيروت-١٢٧١هـ ١٩٥٢م، ط١ (٣/ ٥٥٩).

الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعي من رسول الله ﷺ تتخذ منه الجماعة المسلمة أسوة، وتسير البشرية كلها على هداه في هذا الطريق، وما كان للسيدة زينب إلا أن تستجيب لأمر الله ورسوله لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[سورة الأحزاب: ٣٦].

٣. المفهوم الثالث للآية: مخالفة العادات الجاهلية المتوارثة، ونصب ميزان الحق، فبعد طلاق السيدة زينب من زيد بن حارثة، خطبها النبي الكريم لنفسه وتزوجها لأنها ابنة عمته ولم يكن يربط النبي ﷺ بزيد رضي الله عنه رابطة نسب حقيقي فيحرم عليه بسببه التزوج بمطلقة ابنه إنما هي أبوة معنوية وولاء فبمقتضى الآية لاحرج على النبي ﷺ في هذا الفعل وإن خالف ما كان سائداً في وقته من تحريم التزوج بمطلقة المتبنى، قال القرطبي: ((لما تزوج زينب قال الناس تزوج امرأة ابنه فنزلت الآية أي ليس هو بابنه حتى تحرم عليه حليلته ولكنه أبو أُمَّته في التبجيل والتعظيم وأن نساءه عليهم حرام فأذهب الله بهذه الآية ما وقع في نفوس المنافقين وغيرهم وأعْلَمَ أن محمدا لم يكن أبا أحد من الرجال المعاصرين له في الحقيقة ولم يقصد بهذه الآية أن النبي ﷺ لم يكن له ولد فقد ولد له إبراهيم والقاسم والطيب والمطهر ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلا وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ولم يكونا رجلين معاصرين له))[٦].

الآية الثالثة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

عندما نتأمل الآية قليلاً نجد قوة الخطاب تأخذ بالألباب، وأنها كالسيل الجارف الذي لايقف أمامه تكذيب ولا تفنيد، ولا إنكار لنبوة محمد، ولا جحود بصدق دعوته، فينهال سيل الحق ليقذف بالزبد إلى الجفاء ويُبقي دعوة الرسول، مؤيدة بكامل الحق من الله، ومعززاً بمنازل لا يعلمها إلا الله: الشهادة، والبشارة،

(٦) تفسير القرطبي/ (١٤/ ١٩٦).

والإنذار، والدعوة، والنور ولقد وَرَدَ وصف النبيﷺ في الكتب السابقة بما يطابق أوصافه في هذهِ الآية كما في الحديث الذي يرويه البخاري: ((عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاصرضي الله عنهما فقلت أخبرني عن صفة رسول اللهﷺ في التوراة قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرز الأميين فأنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لاإله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا))[٧]، ووصف الله رسوله محمدًاﷺ بهذه الأشياء، التي، هي المقصود من رسالته، وزبدتها وأصولها، التي اختص بها وهي خمسة أشياء:

١. أحدها: كونه {شَاهِدًا} أي: شاهدًا على أمته بما عملوه، من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [سورة البقرة: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [سورة النساء: ٤١]، وقد ورد في الحديث عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللهﷺ: (حياتي خير لكم يَنْزل عليّ الوحيُ من السماء، فأخبركم بما يحلُّ لكم وما يحُرم عليكم، وموتي خير لكم تُعرض عليّ أعمالكم كلَّ خميس، فما كان من حسَن حمدت الله عليه، وما كان من ذنب أستوهب الله ذنوبكم)[٨]

والشهادة تحتمل وجوهاً أحدها: أنه شاهد على الخلق يوم القيامة، وعلى هذا فالنبي بعث شاهداً أي متحملاً للشهادة ويكون في الآخرة شهيداً أي

(٧) صحيح البخاري/ كتاب البيوع ـ باب كراهية الصخب في الأسواق، رقم ٢٠١٨ (٢/ ٧٤٧).

(٨) الوفا بأحوال المصطفى/ لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ت: ٥٩٧هـ، دار الكتب العلمية -بيروت/ لبنان- ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ط١، حققه: مصطفى عبد القادر عطا (١/ ٨٢٦).

مؤدياً لما تحمل[٩]، الوجه الثاني: أنه شاهد في الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط لأن الله تعالى قد أراه أياها في رحلة الإسراء والمعراج، وشاهد في الآخرة بأحوال الدنيا بالطاعة والمعصية والصلاح والفساد[١٠].

الوجه الثالث: شاهداً على أمته بتبليغ دين الله إليهم وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم[١١].

كما في الحديث ((عن أبي سَعِيدٍ رضي الله عنه قال: قال رسول اللهِ ﷺ: يُدْعَى نُوحٌ فَيُقَالُ هل بَلَّغْتَ فيقول نعم فَيُدْعَى قَوْمُهُ فَيُقَالُ هل بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ ما أَتَانَا من نَذِيرٍ وما أَتَانَا من أَحَدٍ فيقول من شُهُودُكَ فيقول مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ قال فَيُؤْتَى بِكُمْ تَشْهَدُونَ أَنَّهُ قد بَلَّغَ فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾))[١٢].

٢. الصفة الثانية والثالثة: كونه {مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} ولما في البشارة من أثرٍ على نفسية المتلقي قُدمت على النذارة، فإن كانت النفوسُ لاتتلهف للبشارة ولا تهشُ لها، كان الإنذار والتحذيرُ هو الحل الأمثل لعل النفوس تَوْجَل وتخشع من سوء الحساب، فالإسلام دين يتعامل مع الأرواح والنفوس، والعقول والأبدان، وقد جاءت الشريعة بما يطرق أبواب الإنسان كلها، فالروح تحتاج إلى ما يبهجها، وما يعوضها عن نصب الدنيا وتعاستها، بنعيم الجنة وسرورها، فالبشارة لها وقع عظيم على المحرومين والبؤساء والمحتاجين.

(٩) يُنظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي ت: ١٣٧٦هـ حققه عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة ط١ ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠ م (١/ ٦٦٧).

(١٠) ينظر النكت والعيون/ للماوردي ٥/ ٣١٢.

(١١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير/ لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر -بيروت فتح القدير (٤/ ٢٨٨).

(١٢) الجامع الصحيح/ لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي، ت٢٧٩ هـ، دار إحياء التراث العربي -بيروت، حققه: أحمد محمد شاكر سنن الترمذي قال أبو عِيسَى: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ (٥/ ٢٠٧).

٣. الصفة الرابعة: كونه {دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ} أي: أرسله اللهّ، يدعو الخلق إلى ربهم، ويهديهم لكرامته، ويأمرهم بعبادته، التي خلقوا لها، ويكون داعياً إلى الله بأمور كثيرة منها: ١-باستقامته على ما يدعو إليه ٢-بتعريفهم لربهم بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وبذكره لهم أنواع العبودية، ٣-والدعوة إلى اللهّ بأقرب طريق موصل إليه، ٤-وإعطاء كل ذي حق حقه، ٥-وإخلاص الدعوة إلى اللهّ، لا إلى نفسه وتعظيمها، أما لفظة (بإذنه): فقد قال الآلوسي: (أنها من متعلقات-داعياً -وقيدت الدعوة بذلك إيذانا بأنها أمر صعب المنال وخطب في غاية الإعضال لا يتأتى إلا بإسداد من جناب قدسه كيف لا وهو صرْفٌ للوجوه عن القِبَل المعبودة وإدخال للأعناق في قلادة غير معهودة وجوز رجوع القيد للجميع والأول أظهر)[١٣].

٤. الصفة الخامسة: كونه {سِرَاجًا مُنِيرًا} وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نورَ يُهْتَدى به في ظلماتها، ولاعلم، يستدل به في جهالاتها حتى جاء اللهّ بهذا النبي الكريم، فأضاء اللهّ به تلك الظلمات، وعلَّم به من الجهالات، وهدى به ضُلالاً إلى الصراط المستقيم. يستضيء به الضالون في ظلمات الجهل والغواية ويقتبس من نوره أنوار المهتدين إلى مناهج الرشد والهداية، ووصف بالإنارة لآن من السرج ما لا يضيء إذا قل زيته ودقت فتيلته، قال الرازي في تفسيرِه لمعنى السراج ((قال في حق النبيﷺ سراجاً ولم يقل إنه شمس مع أنها أشد إضاءة من السراج لفوائد منها: أن الشمس نورها لا يؤخذ منه شيء والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة فإذا انطفأ الأول يبقى الذي أخذ منه، وكذلك إن غاب والنبيﷺ كان كذلك إذ كل صحابي أخذ منه نور الهداية.

الآية الرابعة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا

(١٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي -بيروت (٢٢/ ٤٦).

مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

في هذه الآية بين الله لرسوله ﷺ ما يحل له من النساء، وما في ذلك من خصوصية لشخصه ولأهل بيته، بعدما نزلت آية سورة النساء التي تجعل الحد الأقصى للأزواج أربعا: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾[سورة النساء: ٣] وكان في عصمة النبي في هذا الوقت تسع نساء، تزوج بكل واحدة منهن لمعنى خاص. عائشة وحفصة ابنتا صاحبيه أبي بكر وعمر. وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة، وسودة بنت زمعة، وزينب بنت خزيمة من المهاجرات اللواتي فقدن أزواجهن وأراد النبي ﷺ تكريمهن، ولم يكن ذوات جمال ولا شباب، إنما كان معنى التكريم لهن خالصاً في هذا الزواج. وزينب بنت جحش، وقد كان ذلك تعويضاً لها عن طلاقها من زيد الذي زوجها رسول الله منه فلم تفلح الزيجة لأمر قضاه الله تعالى، ثم جويرية بنت الحارث من بني المصطلق، وصفية بنت حيي بن أخطب. وكانتا من السبي فأعتقهما رسول الله وتزوج بهما الواحدة تلو الأخرى، توثيقاً لعلاقته بالقبائل، وتكريماً لهما، وقد أسلمتا بعدما نزل بأهلهما من الشدة. وكن قد أصبحن «أمهات المؤمنين» ونلن شرف القرب من رسول الله ﷺ واخترن الله ورسوله والدار الآخرة بعد نزول آيتي التخيير. فكان صعباً على نفوسهن أن يفارقهن رسول الله بعد تحديد عدد النساء. وقد نظر الله إليهن، فاستثنى رسول الله ﷺ من ذلك القيد، وأحل له استبقاء نسائه جميعاً في عصمته، وجعلهن كلهن حلاً له، ثم نزل القرآن بعد ذلك بألا يزيد عليهن أحداً، ولا يستبدل بواحدة منهن أخرى. فإنما هذه الميزة لهؤلاء اللواتي ارتبطن به وحدهن، كي لا يحرمن شرف النسبة إليه، بعدما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وحول هذه المبادئ تدور هذه الآية[١٤]

(١٤) ينظر في ظلال القرآن ٦/ ٩٣.

١. المفهوم الأول: نجد في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾. دليل على أنه ﷺ ما انتفع بأزواجِه إلا بعد أنْ أدَّى مهرهن.

٢. المفهوم الثاني: رسول الله ﷺ جاء ليُبيِّنَ للناس ما نُزِّل إليهم، وجعله ربه أُسْوة سلوكية في الأمور التي يعزُّ على الناس أن يستقبلوها، فنفَّذها رسول الله في نفسه أولاً كما قلنا في مسألة التبني.

٣. المفهوم الثالث: وكان النكاح ينعقد [في حقه] بمعنى الهبة من غير ولي ولا شهود ولا مهر، وكان ذلك من خصائصه ﷺ في النكاح لقوله تعالى: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾ كالزيادة على الأربع، ووجوب تخيير النساء كان من خصائصه أيضاً.

٢. المفهوم الرابع: كما ذهب إليه بعض أهل التفسير: إنه لايحل لنبي الله أن ينكح اليهودية أوالنصرانية/ واختلفوا في أنه هل كان يحل للنبي ﷺ نكاح اليهودية والنصرانية بالمهر؟. فذهب جماعة إلى أنه كان لا يحل له ذلك، لقوله: «وامرأة مؤمنة»، وأول بعضهم الهجرة في قوله: «اللاتي هاجرن معك» على الإسلام، أي: أسلمن معك. فيدل ذلك على أنه لا يحل له نكاح غير المسلمة فإن وهبت امرأة يهودية أو نصرانية أو أعرابية نفسها فإنه لا يحل للنبي ﷺ أن يتزوجها[١٥].

ب. الآيات التي ورد فيها لفظ (النبي) وتوجه الخطاب فيها إلى المؤمنين:

الآية الأولى ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴾.

١. المفهوم الأول: يعني أولى بالمؤمنينَ من بعضهم ببعض في نفوذ حكمه عليهم ووجوب طاعته، وقال ابن عباس: ((إذا دعاهم النبي ﷺ ودعتهم أنفسهم

(١٥) تفسير مقاتل بن سليمان/ لأبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي، ت: ١٥٠هـ، دار الكتب العلمية -لبنان/ بيروت -١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م، ط١، حققه: أحمد فريد(٣/ ٥١).

إلى شيء كانت طاعة النبي ﷺ أولى بهم من طاعة أنفسهم، وهذا صحيح لأن أنفسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، ورسول الله ﷺ يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم))[١٦].

٢. المفهوم الثاني: وقيل: هو أولى بهم في الحمل على الجهاد وبذل النفس دونه، وقيل كان النبي ﷺ يخرج إلى الجهاد فيقول قوم نذهب فنستأذن من آبائنا وأمهاتنا، فنزلت الآية.

٣. المفهوم الثالث: هو أولى بهم في المحبة والتوقير والتعظيم:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»))[١٧]. فالمحبة ثلاثة أقسام: محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد، ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس، فجمع ﷺ أصناف المحبة في محبته.

٤. المفهوم الرابع: إنه أولى بهم في قضاء ديونهم وإسعافهم في نوائبهم: كما ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «مَا مِن مُؤمنٍ إِلاَّ أَنَا أَولَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ اقْرَأُوا إِن شِئْتُم ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَالاً فَلْتَرِثْهُ عُصْبَتُهُ مَن كَانُوا، وَإِن تَرَكَ دَيناً أَوْ ضِيَاعاً فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلاَهُ))[١٨]، قال القرطبي في تفسيره: ((أنه ﷺ كان لايصلي على ميت عليه دين فلما فتح الله عليه الفتوح قال أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي وعليه دين فعلي قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته))[١٩]. ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ يعني من مات عنها رسول الله ﷺ من أزواجه هن كالأمهات في شيئين[٢٠].

(١٦) ينظر تفسير السراج المنير/ لمحمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين دار الكتب العلمية-بيروت (٣/ ١٩١).

(١٧) شعب الإيمان/ لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية -بيروت، ط١، ١٤١٠هـ، حققه: محمد السعيد بسيوني زغلول (٢/ ١٢٩).

(١٨) الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم/ لمحمد بن فتوح الحميدي دار ابن حزم، لبنان/ بيروت -١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، ط٢ حققه: د. علي حسين البواب (٣/ ٥٥).

(١٩) تفسير القرطبي: ١٤/ ١٢٢.

(٢٠) ينظر تفسير الثعلبي ٨/ ٩.

١. أحدهما: تعظيم حقهن.

٢. والثاني: تحريم نكاحهن. وليس كالأمهات في النفقة والميراث. فالرجل يُطلِّق زوجته ويكون كارهاً لها، لكن حين يتزوجها آخر تحلو في عينه مرة أخرى، فيكره مَنْ يتزوجها، وهذه كلها أمور لا تنبغي مع شخص رسول الله، ولا يصح لمن كانت زوجة لرسول الله أن تكون فراشاً لغيره أبداً؛ لذلك جعلهن الله أمهات للمؤمنين جميعاً، وهذه الحرمة لا تتعدى أمهات المؤمنين إلى بناتهن فمَنْ كانت لها بنت فلتتزوج بمَنْ تشاء، إذن: لا يجوز لإنسان مؤمن برسول الله ويُقدِّره قدره أنْ يخلفه على امرأته وأما اللاتي طلقهن رسول الله ﷺ في حياته فقد اختلف في ثبوت هذه الحرمة لهن على ثلاثةأوجه: أحدها: تثبت لهن هذه الحرمة تغليباً لحرمةرسول الله ﷺ. الثاني: لا يثبت لهن ذلك بل هذه كسائر النساء لأن النبي ﷺ قد أثبت عصمتهن وقال: أزواجي في الدنيا هن أزواجي في الآخرة، الثالث: أن من دخل بها رسول الله ﷺ منهن ثبتت حرمتها ويحرم نكاحها وإن طلقها حفاظاً لحرمته وحراسة لخلوته ومن لم يدخل بها لم يثبت لها هذه الحرمة.

- واختلف في كونهن كالأمهات في المحرم وإباحة النظر على الوجهين[٢١]:

أحدهما: هن محرم لا يحرم النظر إليهن لتحريم نكاحهن.

الثاني: أن النظر إليهن محرم لأن تحريم نكاحهن إنما كان حفظاً لحق رسول الله فيهن فكان من حفظ حقه تحريم النظر إليهن.

الآية الثانية: توجه الخطاب إلى المؤمنين وتحذيرهم المنافقين.

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾.

في هذه الآية المباركة نجد وصفا دقيقاً

(٢١) النكت والعيون/ لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ت: ٤٥٠هـ، دار الكتب العلمية -بيروت/ لبنان حققه: السيد ابن عبد المقصود ابن عبد الرحيم (٤/ ٣٧٤).

لحال أهل النفاق الذين لا ينكشف زيفهم، ولا يظهر خداعهم إلا بعدأن يعرضوا على فتنة عظيمة فعند إذٍ تبدي السنتهم ما تخفي قلوبهم وتتكشف لعامة المسلمين خبث نواياهم، حتى يميز الله الخبيث من الطيب، ولا فتنة أعظم من فتنة يوم الخندق والتي وصف الله تعالى فيها حال المسلمين الذين اجتمعت عليهم أقسى وأصعب الظروف من القلة والخوف، والجوع، والبرد الشديد، واجتماع المشركين على قتالهم حتى رمتهم عن قوسٍ واحدة فقال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[سورة الأحزاب: ١٠ -١١].

وقد سطرت كتب السير والتأريخ هذهِ الحادثة فقال ابن كثير: ((وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق، حتى قال معتب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ! وحتى قال أوس بن قيظى: يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، وذلك عن ملأ من رجال قومه، فأذن لنا أن نرجع إلى دارنا فإنها خارج من المدينة))[٢٢].

الآية الثالثة: ما يتوجه فيه الخطاب إلى المؤمنين تأديباً وتعليماً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾.

يبين الله العلاقة بين الرسول و من يحضر الى منزله محددا بعض الاحكام و الآداب التي تمس هذه العلاقة. وتبين

(٢٢) السيرة النبوية/ لابن كثير(٣/ ٢٠١).

الأدب الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم في بيت مضيفه من الإستأذان وعدم الإطالة، وحفظ النظر وغيرها من الآداب، فإن لبيوت النبيﷺ حرمةً وخصوصية، ينبغي أن تراعى وأن يحفظ مقام النبي في بيته، في حياته وبعد موته، وهو تشريع عام لدخول بيوت المسلمين والتخلق بالأخلاق الإسلامية التي لا تسبب الحرج والضيق للمضيف. ونستطيع أن نلمس من ثنايا هذهِ الآيات الآداب والمفاهيم الآتية:

١. الدخول الى بيت النبي يجب أن يكون بالأذن مسبقا (إلا أن يؤذن لكم).

٢. وعند الدعوة الى الطعام يجب ان لا يدخل قبل الموعد، و ينتظر أوان الطعام، لأن من آداب الأكل في بيوت الآخرين أن ياتي في الوقت المناسب، و ذلك لان المجيء أول النهار و انتظار الغداء يسبب الازعاج لصاحب البيت، وقد جاء في السيرة ((عن أنسؓ قال: وشهدت وليمة زينب فأشبع الناس خبزا ولحما وكان يبعثني فأدعو الناس فلما فرغ وقام وتبعته فتخلف رجلان استأنس بهما الحديث لم يخرجا فجعل يمر على نسائه فيسلم على كل واحدة منهن سلام عليكم كيف أنتم يا أهل البيت فيقولون بخير يا رسول الله كيف وجدت أهلك فيقول بخير فلما فرغ رجع ورجعت معه، فلما بلغ الباب إذا هو بالرجلين قد استأنس بهما الحديث، فلما رأياه قد رجع قاما فخرجا، فوالله ما أدري أنا أخبرته أم أنزل عليه الوحي بأنهما قد خرجا، فرجع ورجعت معه فلما وضع رجله في أسكفة الباب أرخى الحجاب بيني وبينه، وأنزل الله تعالى هذه الآية لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم))[٢٣].

٣. تأديب الصحابة بالأخلاق العالية التي يتعاملون بها مع أرهف الناس إحساساً، وأصدقهم شعوراً،

(٢٣) صحيح مسلم/ مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ت: ٢٦١هـ دار إحياء التراث العربي بيروت/ حققه: محمد فؤاد عبد الباقي/ باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس، رقم ١٤٢٨(٢/ ١٠٤٦).

وأكملهم أخلاقاً فنهاهم سبحانه وتعالى عن أن يعاملوا رسول الله ﷺ بالتوسع في الانبساط والإسترسال كما يعامل من لا يهاب ولا يتقى، فيدخل بيته بغير إذنه إذا دعاهم إلى طعام لم ينضج، وأحاطوا به منتظرين إدراكه وإذا حضر الطعام ودخلوا وطعموا لزموا مجالسهم مستأنسين بالمحادثة، وأخبرهم أن ذلك منهي عنه، إذ كان النبي ﷺ قد تأذى منه ويستحى أن يكلمهم، كما أدبهم فيما ينبغي عليهم تجاه معاملتهم مع أزواجه ﷺ وهذا كله مما يدل على ماله ﷺ من التعظيم والاحترام[٢٤].

٤. ثم يبين القرآن خلفية هذا النهي: بأن الجلوس ربما يؤدي الى احراج الرسول و اذاه، بما ينتهي اليه من آثار سلبية على برنامج حياته العائلية أو السياسية فالنبي ﷺ لديه من أمورالمسلمين، وهموم دعوته ما يشغله. ولأنهم كانوا يضيقون المنزل عليه وعلى أهله ويتحدثون بما لا يريده وكان النبي ﷺ يحتمل إطالتهم كرما منه فيصبر على الأذى في ذلك فعلَّم الله من يحضره الأدب فصار أدبا لهم ولمن بعدهم [إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم و الله لا يستحي من الحق].

٥. وعلى الضيف ان يراعي حرمة البيت الذي يحل فيه، فلو اضطرته الحاجة للتعامل مع أهله من النساء يجب ان يتعامل معهن بأدب، و بمقدار حاجته، ومن وراء حجاب، فبعد نزول هذه الآية صار حراما على المؤمنين التحدث مع نساء الرسول الا بهذه الكيفية. [وإذا سألتموهن متاعا فسئلوهن من ورآء حجاب]، وقال الإمام الشوكاني: ((ذكر سبحانه أدباً آخر متعلقاً بنساء النبيّ ﷺ فقال: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ متاعا} أي شيئاً يتمتع به، من الماعون وغيره {فاسألوهن مِن وَرَآءِ حِجَاب} أي من وراء ستر بينكم وبينهنّ. والمتاع يطلق على كل ما يتمتع به، فلا وجه لما قيل

(٢٤) ينظر حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة/ لمحمد بن خليفة بن علي التميمي، أضواء السلف، الرياض ط١١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م. (٢/ ٤٣٨).

من أن المراد به العارية أو الفتوى أو المصحف)) [٢٥].

الآية الرابعة: التي يتوجه فيها الخطاب إلى المؤمنين تعظيماً لنبيهم وتفخيماً.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾.

في هذه الآية المباركة نستشعر عظمة سيد المرسلين وعظيم حقه علينا، إذ أنه تسامى في مقام البشرية وسلك الطرق الموصلة إلى محبة الله حتى أعلمنا الله تعالى أنهُ يصلي عليه وملائكته الكرام، لينبه العقولَ، ويوقظ القلوب، ويجيش المشاعر لتستقبل حبيب رب العالمين بالتوقير والإجلال، ولتتسابق الألسن بترديد الصوات عليه محبةً لنبينا وشوقاً إلى لقائه، وعرفاناً بفيض أحسانه إذ هدانا إلى سبيل محبة الله وتوحيده، ودلنا على طريق الخير الذي لا يزيغ عنه إلا هالك، وتنفيذاً لأمر الله بالصلاةِ عليهِ، واعترافاً بفضلهِ وعظيم دورهِ في هداية الناس إلى طريق الله تعالى، وذكرُ الصلاة على النبي في هذا الموضع له أبعاد أخرى أراد الله تعالى لها أن تتبين، وتستقر حقيقتها استقرار قرص الشمس في كبد السماء، وهي أن المنافقين لما شنعوا على نبينا، وشنوا حملة على آل بيته الأطهار، وحاولوا تشويه الصورة المشرقة لزوجاته المؤمنات، وبناته العفيفات، وأرادوا إيذائهن، كان لابد من ردٍ يلجم أفواه المنافقين، ولا حجة ولا ردَّ أعظم من دفاع الله تعالى عن نبيه، فنزلت هذه الآيات المباركات لتقرر مكانة النبي عند الله وعند الملأ الأعلى قال سيد قطب: ((ويستمر السياق في تحذير الذين يؤذون النبي ﷺ في نفسه أو في أهله؛ وفي تفظيع الفعلة التي يقدمون عليها. وذلك على طريقين: الطريق الأول تمجيد رسول الله ﷺ وبيان مكانته عند ربه وفي الملأ الأعلى والطريق الثانية تقرر أن إيذاءه إيذاء لله سبحانه وجزاؤه عند الله الطرد من رحمته في الدنيا والآخرة، والعذاب الذي يناسب الفعلة الشنيعة)) [٢٦].

(٢٥) فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير: لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ت: ١٢٥٠هـ(٤/ ٤٢٢).

(٢٦) في ظلال القرآن(٦/ ٩٨).

معنى صلاة الله والملائكة على النبي

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ فيه أربعة أقاويل[٢٧]:

١. إن صلاة الله تعالى عليه ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء.

٢. إن صلاة الله تعالى عليه المغفرة له، وصلاة الملائكة الاستغفار له، قاله سعيد بن جبير.

٣. إن صلاة الله تعالى عليه رحمته، وصلاة الملائكة الدعاء له، قاله الحسن، وهو معنى قول عطاء بن أبي رباح.

٤. إن صلاتهم عليه أن يباركوا عليه، قاله ابن عباس.

ج. الآيات التي توجه فيه الخطاب إلى نساء النبي ﷺ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

وهذا درس عظيم من دروس سورة الأحزاب خاص بأزواج النبي ﷺ، ولقد جاء في أوائل السورة تسميتهن «أمهات المؤمنين» ولهذه الأمومة تكاليفها، وللمرتبة السامية التي استحققن بها هذه الصفة تكاليفها، ولمكانتهن من رسول الله ﷺ تكاليفها، وفي هذا الدرس بيان لشيء من هذه التكاليف؛ وإقرار للقيم التي أراد الله لبيت النبوة الطاهر أن يمثلها، وأن يقوم عليها، وأن يكون فيها منارة يهتدي بها السالكون. فقد كان النبي ﷺ يعيش عيشة البساطة والكفاف هو و أهل بيته الأطهار وربما أتاه ضيف، فينطلق يسأل زوجاته هل عندكم من شيء، فلا يجد، ويمر على أهل بيته الهلال والهلالان ولا يوقد في أبيات رسول الله النار أي لايطبخون طعاماً إنما كان طعامهم الأسودان (التمر والماء) على الرغم من أن النبي كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وفاض عليه المال فيضاً من الفيء والغنائم، ولكن تلك الحياة هي حياة الترفع والتعالي على متاع الحياة الدنيا، وعدم الإغترار بزخرفها وبهرجتها، والرغبة فيما عند الله تعالى، ولم تكن الطيبات محرمة في عقيدته وشريعته؛ ولم يحرمها على نفسه حين كانت تقدم إليه عفواً بلا تكلف، ولم يكلف أمته كذلك أن تعيش عيشته التي اختارها لنفسه، إلا أن يختارها من يريد، استعلاء

(٢٧) النكت والعيون/ للماوردي (٤/ ٤٥٣).

على اللذائذ والمتاع؛ و من أراد أن يتخففَ مِن رغبات النفس وميولها ولكن نساء النبيﷺ كن نساءاً، من البشر، لهن مشاعر البشر وعلى فضلهن وكرامتهن وقربهن من ينابيع النبوة الكريمة، فإن الرغبة الطبيعية في متاع الحياة ظلت حية في نفوسهن. فلما أن رأين السعة والرخاء بعدما أفاض الله على رسوله وعلى المؤمنين راجعن النبيﷺ في أمر النفقة. فلم يستقبل هذه المراجعة بالترحيب، إنما استقبلها بالأسى وعدم الرضى؛ إذ كانت نفسهﷺ ترغب في أن تعيش فيما اختاره لها من طلاقة وارتفاع ورضى؛ متجردة من الانشغال بمثل ذلك الأمر والاحتفال به أدنى احتفال؛ وأن تظل حياته وحياة من يلوذون به على ذلك الأفق السامي الوضيء المبرأ من كل ظل لهذه الدنيا.

- واختلف في السبب الذي لأجله خير رسول اللهﷺ نساءه على أقوال:

١. أحدها: لأن الله تعالى خيرَّ نبيه بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة، فاختار الآخرة على الدنيا وقال: «اللَّهُمَّ احْيِنِي مِسْكِيناً وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ المَساكِين»[٢٨].

٢. الثاني: لأنهن تغايرن عليه، والنبي يحمل عبءَ الرسالة التي كلفه الله أن يبلغها إلى العالمين فلا ينبغي أن تشغله مشاكل النساء والغيرة بينهن عن دعوته لذا كان التخيير حلاً مثالياً لتسود المودة والصفاء.

٣. الثالث: إن نساء النبي طالبنه بما ليس عنده من ثياب ومتاع، كما روى الإمام أحمد: ((عن جابر رضي الله عنه قال: أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول اللهﷺ، والناس ببابه جلوس، والنبيﷺ جالس، فلم يؤذن له، ثم أُذن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فدخلا والنبيﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ساكت فقال عمر رضي الله عنه: لأكلمن رسول اللهﷺ لعله يضحك، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتني

(٢٨) ذكره الإمام الحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وقال: ((هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)) المستدرك على الصحيحين/ لأبي عبدالله محمد ابن عبدالله الحاكم النيسابوري ت: ٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١ -١٩٩٠ م ط١، حققه: مصطفى عبد القادر عطا(٤/ ٣٥٨).

النفقة آنفاً فوجأت عنقها، فضحك النبيﷺ حتى بدا ناجذه، وقال: هن حولي يسألنني النفقة))[٢٩].

٤. الرابع: إن أمر الله للنبي أن يخير أزواجه لأن الله تعالى صان خلوة نبيه فخيرهن على ألا يتزوجن بعده حرمةً وهيبةً للنبي في حياته وبعد مماته.

الآية الثانية: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾.

هذا خطاب لين متوجه إلى زوجات النبي فيه الإعتناء بنصحهن وتوجيههن فيما يخص صيانة بيت الزوجية فبداية المسألة بدأت بتخييرهنّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ..﴾[سورة الأحزاب: ٢٨] فلما اخترْن الله ورسوله والدار الآخرة كأنهن ارتفعْنَ إلى مستوى الخطاب المباشر من الله تعالى، أي كأنهن حقَّقْنَ المراد من الأمر السابق ﴿فَتَعَالَيۡنَ ...﴾ [سورة الأحزاب: ٢٨] فأراد سبحانه أنْ يُعطيهن المنهج والمباديء التي سيسرْنَ عليها في حياتهن،. وكلمة {نِسَآءَ...} نعلم أنها جمع، لكن لا نجد لها مفرداً من لفظها، إنما مفردها من لفظ آخر هو امرأة[٣٠] وبعض الباحثين في اللغة قال: إن (نساء) من النَّسْأ والتأخير، على اعتبار أن خَلْقها جاء متأخراً عن خَلْق الرجل، ومفردها إذن (نَسْءٌ)[٣١]، ومن المفاهيم التي تستقى من هذه السورة الآتي:

١. المفهوم الأول: ذكر العقاب ومضاعفة العذاب قبل ذكر الثواب ومضاعفة الأجر هو كمثل التخلية قبل التحلية، فلو أراد احدنا أن يتوضأ فينبغي له أولاً أن يتطهر من النجاسة، وهناك

(٢٩) مسند الإمام أحمد بن حنبل/ لأبي عبدالله أحمد بن حنبل الشيباني ت: ٢٤١ هـ، مؤسسة قرطبة رقم الحديث: ١٤٥٥٥، (٣/ ٣٢٨)، وينظر تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل/ لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، دار الفكر -بيروت/ لبنان-١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م (٧/ ١٢٠).

(٣٠) اللباب في علوم الكتاب/ لأبي حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي: دار الكتب العلمية -بيروت/ لبنان-١٤١٩هـ-١٩٩٨ م، ط١، حققه: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض (٢/ ٦١).

(٣١) لسان العرب (١/ ١٦٨).

القاعدة الأصولية التي تقول درأ المفاسد مقدم على جلب المصالح[٣٢].

٢. المفهوم الثاني: ورود لفظ (الفاحشة) مع ما له من وقع عظيم على النفوس ولم يأت بلفظ أخفَّ وقعاً كالذنب أو الإثم مثلاً مع كون الفاحشة أمر مستبعد أن يصدر من أمهات المؤمنين فهذا يدل على عظم الذنب وإن كان من صغائرالذنوب لكونه يصدر من بيت طهره الله من الأرجاس وهو نظير خطاب الله تعالى لنبيه ﷺ محذراً إياه بقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ..﴾ [سورة الزمر: ٦٥]. ومعلوم أن رسول الله ليس مظنة الوقوع في الشرك، إذن: فالمعنى، يا محمد ليس اصطفاؤك يعني أنك فوق المحاسبة، كذلك الحال بالنسبة لنسائه: إنْ فعلَتْ إحداكن فاحشة، فسوف نضاعف لها العذاب، ولن نستر عليها لمكانتها من رسول الله، فإياكُنَّ أنْ تظننَّ أن هذه المكانة ستشفع لكُنَّ إذن: منزلة الواحدة منكُنَّ ليست في كونها مجرد زوجة لرسول الله، إنما منزلتها بمدى التزامها بأوامر الله، وإلا فهناك زوجات للرسل خُنَّ أزواجهن كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

٣. المفهوم الثالث: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي ظاهرةِ القُبحِ من بين بمعنى تبين وقُرِىء بفتحِ الياءِ والمرادُ بها كلُّ ما اقترفنَ من الكبائرِ وقيل: هي عصيانهُنَّ لرسولِ الله ﷺ ونشوزهنَّ وطلبهنَّ منه ما يشقُّ عليه أو ما يضيق به ذرعُه ويغتمُّ لأجله[٣٣].

٤. المفهوم الرابع: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي يعذبنَّ ضعفي عذابِ غيرهنَّ أي مثليه لأنَّ الذنبَ منهنَّ

(٣٢) أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم/ لصديق بن حسن القنوجي ـ ت: ١٣٠٧هـ دار الكتب العلمية، بيروت- ١٩٧٨م حققه: عبد الجبار زكار(١/ ١٠٣).

(٣٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم/ لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، (٥/ ٣٣٣).

أقبحُ فإنَّ زيادةَ قُبحه تابعةٌ لزيادةِ فضلِ المذنبِ والنِّعمةِ عليه ولذلك جُعل حدُّ الحرِّ ضعفَ حدِّ الرَّقيقِ وعُوتب الأنبياءُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بما لا يُعاتب به الأممُ، وقيل: هذا الحكم خاصٌّ بنساء النبيﷺ، فإن حدث من إحداهن ذنب بينها وبين نفسها فهو ذنب واحد مقصور عليها، فإنْ كان علانيةً فهو مُضَاعف؛ لأنهن أسوة وقدوة تتطلع العيون إلى سلوكهن، فإنْ ظهرت منهن فاحشة كان تشجيعاً للأخريات، فمضاعفة العذاب – إذن –لأن الفساد تعدَّى الذات إلى الآخرين، وأحدث قدوة سوء في بيت النبي، فاستحقتْ مضاعفة العذاب، لأنها آذتْ شعور رسول الله، ولم تُقدِّر منزلته، كذلك إنْ فعلتْ إحداهن حسنة، فلها أجرها أيضاً مُضَاعفاً؛ لأنها فعلتْ صالحاً في ذاتها كأيِّ إنسانه أخرى، ثم أعطتْ قدوة حسنة لغيرها، قال مقاتل: ((وتضعيف عقوبتهن على المعصية لشرفهنّ كتضعيف عقوبة الحرة على الأمة وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهن؛ وفيه إشارة إلى أنهن أشرف نساء العالمين))[٣٤].. وقد روى عن الإمام زين العابدين بن على بن الحسينؑ أنه قال له رجل: إنكم أهل بيت مغفور لكم، فغضب، وقال نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله تعالى على نساء نبيهﷺ من أن لمسيئنا ضعفين من العذاب، ولمحسننا ضعفين من الأجر[٣٥].

الخاتمة

الحمدُ لله وكفى ثم الصلاة والسلام على نبيه المصطفى، وعلى آله الشرفا، وصحابته ذوي الوفا، ومن سار على هديهِ ولدربه اقتفى، وبعد. فإن هذا البحث تناول آيات تتنوع في أسلوبها وخطابها فهناك أربع آيات أشتملت على معانٍ عظيمة وتوجيهات ربانية اختص بها النبيﷺ

(٣٤) معالم التنزيل/ لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ت: ٥١٠هـ، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤: ١٤١٧ هـ -١٩٩٧م حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر -عثمان جمعة ضميرية -سليمان مسلم الحرش(٦/ ٣٤٨).

(٣٥) التفسير الوسيط/ لمحمد سيد طنطاوي، ط١، القاهرة(١/ ٣٤١٦).
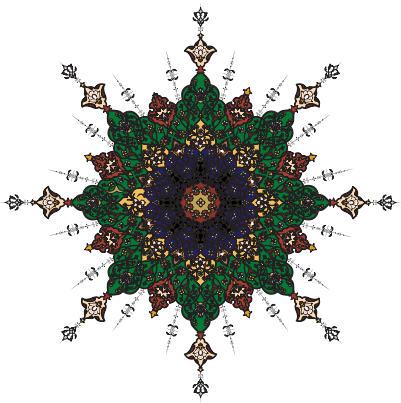
عن سائر أمته، مثل الوصية بتقوى الله، وإحلال التزوج بتسع زوجات، وجواز التزوج بالمرأة المؤمنة، التي تهب نفسها له بغير صداق، والإرسال إلى الناس شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياًإلى الله، وأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهات للمؤمنين، واشتملت السورة على جملة من الآداب ادرجناها تحت عنوان ما ورد به لفظ النبي و توجه الخطاب فيه إلى المؤمنين والتي رسمت للمؤمنين طريق التوقير والتعظيم لدين الله، ولرسوله الكريم منها: الصلاة على النبي وآل النبي الكريم وعدَّها عبادة يؤجر عليها المسلم، وآداب دخول المنازل وحفظ النظر، وآداب الطعام والإنصراف منه، وتحديد مسؤلية المسلم تجاه نبيَّه والدفاع عنه، وإجلاله، واحترام زوجاته، ومنها آيات تنبه المؤمنين إلى خطر المنافقين، ودورهم في فت عضد الأمة، وتوهين وحدة صفهم ليحذروهم، كذا اشتملت السورة على آية واحدة عامة لنساء المؤمنين، تسمى آية الحجاب تأمر المسلمات بالتستر والمبالغة في حفظ أجسادهن من التكشف والسفور صيانة لكرامتهن، واشتملت السورة على ثلاث آيات ورد فيها لفظ النبي، تخص زوجات النبي وتخييرهن بين زينة الحياة الدنيا، وبين ضيق العيش مع النبي مع سعة الآخرة، والمغفرة والرضوان من الله، وبيان مكانتهن ودورهن الإجتماعي كأمهات للمؤمنين، ومعلمات ومبلغات لما نزل في بيوتهن من شرع الله وآياته.